عصر الترجمة والعصر الذهبي للطب العربي

د. عبدالرزاق الشقفي

- ١ -

أمتنا العربية أعطت العالم في العصور السالفة كثيراً من المعرفة فقد ظلت ردحاً طويلاً من الزمن تحمل راية العلم، ومشعل العرفان، لتنير الدروب، وتبدد الظلمات ٠٠ كانت بحق خير أمة أخرجت للناس ٠٠ تمكنت من استيعاب المعارف الانسانية التي وصلت اليها الأمم من قبل ٠٠ ثم انطلقت في رحاب النور تخط للدنيا حروفاً مشرقة مضيئة ٠٠ تهدي بها السادرين في لجج الضلال ٠٠ وترشد التائهين الى ضفاف الأمان والسلام ٠

كانت أمتنا خالدة في كل ما قدمته للعالم ٠ لأنها تحمل ذهناً نقياً صافياً، ونظراً صادقاً ٠ وحساً تجريبياً، وميلاً فطرياً الى المؤالفة بين الفكر وبين التجريد والتطبيق ٠٠٠ ولقد تعرضت لغزوات ولصنوف من القهر وأشكال من البغي والاستبداد ٠٠ وابتليت بالاحتلال ولكن هل ركعت وضاعت كما ضاعت أمم من قبلها ٠٠ كانت لها حضارة فهل بادت ؟.. كان لها مجد فهل صار مع الدارسين ؟ لقد أوقفتها المحن عن المسيرة الجادة في مضمار المعرفة والعلم، ولكنها حين أفاقت في هذا العصر من غفوتها أقلقها أن وجدت نفسها وراء الركب الذي كانت تتقدمه، وكان لا بد من النهوض، ولكل جواد كبوة ٠٠ ولكل سيف نبوة ٠٠ ان نظرة قصيرة الى ماضينا الناصع التليد، الحافل بنور العرفان تبدد فينا غياهب اليأس والقنوط، وتزيد الارادة صلابة وعزماً ٠٠ ولعمري هل ينطلق السهم من القوس ان لم نرجع الوتر ونشد به الى الوراء ٠٠

٠٠ اسمحوا لي أن أفتح أمامكم صفحة من ماضينا، سطَّرها التاريخ بأحرف بارزة وضاءة ٠ نقرأ فيها بعض ما أسهم به الأولون النوابغ، فكانوا أوائل من ألهموا العالم ٠٠

ورسموا معالم الحضارة الانسانية ٠٠ اسمحوا لي أن أطلعكم على صفحة مشرفة من عصرنا الذهبي للطب العربي ٠٠٠

إن أول طبيب عربي كان أحد أقرباء رسول الله (ﷺ) ٠٠ وهو الحارث بن كلدة ٠٠ درس الطب في جند يسابور، وكانت له مناظرة مع الملك الساساني (أنو شروان) في موضوع الصحة ٠ ثم عاد الى مكة والطائف حيث وجّه اليه الرسول الكريم بعض المرضى لعلاجهم ٠٠ وتقول لنا المصادر التاريخية أن ابنه النضر بن الحارث كان طبيباً أيضاً ٠ وعلى الرغم من هذا الاتصال المبكر بين المسلمين الأولين ومدارس الطب الأجنبية ، فان المسلمين لم يواصلوا التعلم في هذا الميدان ، ولم يقبلوا على الطب التقليدي الا بعد أن توطدت اللغة العربية في البلاد ، كلغة للطب ، وتغلغلت المعرفة الطبية في حياة العرب اليومية ٠٠ وحينما فتح المسلمون (جند يسابور) و(الاسكندرية) ٠ كان فيهما مدرستان تعملان كمركزين للتعليم الطبي ، وكانت الأولى بصورة خاصة في أوج نشاطها ٠ ولكن لم تتم ترجمة آية رسالة طبية الى اللغة العربية قبل العصر الأموي ٠

لقد امتد ملك الأمويين ما بين سمرقند شرقاً وأقاصي الأندلس غرباً ، وكانت دمشق منارة تشع بنورها على أرجاء واسعة من العالم ٠ فقد احتلت اللغة العربية مركزاً لا مثيل له في التاريخ ، ان أول من أمر بنقل العلوم الى اللغة العربية هو مروان بن الحكم ٠ وقد تم بعهده ترجمة كناش أهرن القس من السريانية الى العربية ، من قبل طبيب من البصرة يدعى ماسرجويه ٠ وبقي هذا الكتاب المترجم محفوظاً في بيت مال المسلمين الى أن جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي أمر بنسخه ونشره ٠

لقد اتصل العرب بسكان سوريا وبلاد الرافدين قبل الفتح الاسلامي ، فاطلعوا على حضارات تلك الشعوب القديمة ، ووجدوا فيها ما يرضي رغبتهم الشديدة في المعرفة والعلم ، لذلك أكرموا علماء وأطباء السريان بعد الفتح ، وتركوا مدارسهم قائمة في أنطاكية وحرّان ، اكراماً للعلم والدين ، وحفظاً لأمهات الكتب العلمية ٠ وقد أحب أولئك النصارى المسلمين الفاتحين ، لما تحلّوا به من التسامح الديني ، والمبالغة في اكرام العلماء ، وبادلوهم الاخلاص والولاء ٠

لقد استعارت لغتنا العربية كثيراً من الألفاظ والمعاني والعبارات السريانية ، بعد أن صقلتها بما يلائم قواعدها ٠ أوليست لفظة الفاروق ، أي المنقذ ، سريانية الأصل ؟ وقد أطلقوها على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي أنقذهم من اضطهاد الروم ٠

لقد درج المؤرخون على تسمية المرحلة التي سبقت ازدهار العلوم عند العرب، بمرحلة النقل والترجمة ٠ ولا بد من الاشارة الى اسهام السريان في تلك الحركة :

أما السريان فهم بقايا سكان سوريا وبلاد الرافدين القدماء ٠ وكان من أعظم كتّابهم ومترجميهم قبل الاسلام « سرجيوس الرأسعيني »، المتوفى عام ٥٢٦ م ٠ وقد نقل بعض مؤلفات جالينوس الطبية ، بعد أن أمضى زمناً في مدينة الاسكندرية ، أتقن خلالها اللغة اليونانية ودرس الكيمياء والطب في مدرستها ٠ أما نشأته فكانت في مدينة رأس العين ، شمال سوريا ٠ ولا تزال بعض ترجماته محفوظة حتى اليوم في المتحف البريطاني ٠

كان الرسول العربي الأمي (ﷺ) أول من وجَّه الى تعلم اللغة السريانية ، واقتباس العلوم منها. وقد جاء في الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى ما يلي : « روى محمد بن عمر المدائني، في كتاب القلم والدواة ، قول الرسول لزيد بن ثابت : « أتُحسن السريانية ؟.. قال: لا .. قال : تعلمها .. فتعلمها زيد ... » .

لقد فتح العرب « الرها » في القرن السابع الهجري ، وهي مدينة سريانية عظيمة كانت مهداً للثقافة الأدبية والدينية ، وفيها مدرسة تخرَّج منها عدد كبير من الدارسين ، حتى أنهم سمَّوها « أثينا » سورية . وفي مدينة حرَّان ،التي قيل انها أول مدينة بنيت بعد الطوفان ، كان فيها أيضاً مدرسة للعلوم الرياضية والفلك تخرَّج منها علماء من أشهرهم ثابت بن قرة وأولاده ، وأبو عبد الله البتَّاني وغيره . وقدر بعض الباحثين عدد المدارس التي كانت فيما بين النهرين بنحو خمسين مدرسة .

لقد استفاد الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون ، من هذه المدارس ، فترجمت الكتب من السريانية الى العربية ، ولم يترك كتاب في العلم أو الحكمة الا عرَّبوه . وقد أدى هذا التماس بين العرب المسلمين والنصارى السريان الى تبادل الودّ والاحترام بينهم ، حتى ان بعض رجال الدين من السريان أفتى بتعليم أولاد المسلمين التعليم الراقي ، حيث كانت العلوم وقفاً لهم ، يورثه الآباء لمن يجدونه أهلاً من أبنائهم .

لقد بعث الاسلام قوة جديدة ونشاطاً باهراً في امكانات العرب الكامنة ، مما أدى الى تقدمهم في حقل العلوم، حتى انهم كانوا يقولون (لقد كان « اليوناني » أباً للعلم فجاء العربي المسلم فحلَّ محله في أبوة العلم) . ويقول المستشرق ولتر « ان حقائق العلم والنور جاءتنا ، نحن الأوربيين ، عن طريق العرب ،ولم تصلنا عن طريق اللاتين ... لقد كان باستطاعة القادمين من الصحراء ، بعقولهم الزكية ، المولعة بالاطلاع والجرأة النادرة ، أن يفتحوا العالم أجمع لو بقوا سائرين سيرتهم الأولى .. » .

واذا سألنا أنفسنا تُرى ما هي الأسباب التي جعلتنا ، نحن العرب ، متعطشين الى الاطلاع على علوم من سبقنا من الأمم ،حُفَّاظاً لها ، ومبتكرين فيها ، وناشرين لها ؟ نقول :

أولاً ــ القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهما قد حببا المسلمين بالعلم ورفعا مكانته ، فأصبح في نظرهما أثمن شيء بعد الايمان . واعتبر الاسلام العلماء ورثة الأنبياء ، ورتبة العلم أعلى الرتب .

ثانياً ــ طبيعة العربي ، فقد خلق بحاثاً محباً للاطلاع ، فما أن جاء الاسلام ، ودان به أكثر العرب ، حتى رغبوا في اقتباس العلم .

ثالثاً ــ تشجيع الخلفاء والأمراء من المسلمين للناس على طلب العلم، فقد روي عن عليّ (كرم الله وجهه) ، أنه قال « العلم خير من المال .. العلم يحرسك وأنت تحرس المال. العلم حاكم والمال محكوم عليه ، مات خازن الأموال وبقي خازن العلم » .

ومما قاله خلفاء العرب عن العلماء «انهم صفوة الله في خلقه ، ونخبة من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة، فكانوا مصابيح الدجى وسادة البشر ...» .

رابعاً – استعراب الأمم التي فتح الله قلبها للاسلام ، فآمنت به ، وأعجبت باعجاز القرآن وبلاغة الحديث ، فصدت عن التأليف بلغتها ، وألفت العربية بعدما فتنت بها ..

لقد اشتهر الخلفاء العباسيون بحبهم وتقديرهم للعلم وأهله ، فكان المنصور يتحف ملوك الروم بهداياه الثمينة من أجل أن يصلوه بما لديهم من كتب الحكماء . وكان يخصص لها مهرة المترجمين ، ويبذل لهم العطاء . فراجت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وكانت الترجمة عمل دولة لا عمل أفراد . وفي عهد الرشيد ازداد نشاط العلماء والأطباء ، وامتلأت خزائن دار الحكمة بالمخطوطات وانتقل كبار الأطباء والتراجمة والباحثين عن العلم والعمل الى مدينة بغداد ،فكان عند الرشيد من يطببه على طريقة اليونان أو الهنود او الفرس أو الكلدان ...

وكان الخليفة المأمون ذا ولع بالطب . ومن غريب ما يروى عنه أنه أولم لخاصته ووضع لهم أكثر من ثلاثمائة لون من ألوان الطعام ، وكلما وضع لون نظر اليه المأمون وقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا ينفع لكذا .. ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصده الغذاء فليقتصر على هذا .. وما زالت تلك حاله حتى رفعت الموائد .. فقال يحيى بن أكثم « يا أمير المؤمنين ان بحثت في الطب فأنت جالينوس .. وفي معرفة النجوم فأنت هرمس، وان ذكرنا السخاء فأنت حاتم » .

لقد اقتدى بالخلفاء العباسيين ووزرائهم عدد كبير من رجال عصرهم، فأصبحوا يتنافسون على اقتناء الكتب القديمة من يونانية أوسريانية أو فارسية ، كما سعوا لنقلها الى اللغة العربية . ومن الأسر المشهورة بممارسة الطب وترجمة الكتب آل بختيشوع . وهي أسرة نصرانية – نسطورية ، توارثت صناعة الطب ، وكان لأفرادها حظوة عند الخلفاء العباسيين، منذ زمن المنصور، فانتفعوا ونفعوا بطبهم ومؤلفاتهم . وكانوا من أجمل أهل زمانهم ، لما لهم من شرف النفوس ونبل الهمم . لذلك توارثوا رئاسة الأطباء في مدينة بغداد مدة لا تقل عن ثلاثة قرون ، ولكن مؤلفاتهم الطبية كانت موجزة وقليلة العدد .

كان جرجس بن بختيشوع (ت – ١٥٤ هـ) ، عميد هذه الأسرة ، رئيساً لبيمارستان ومدرسة جنديسابور . وكان أول من جاء الى بغداد بناءً على طلب المنصور . ثم تبعه عدد كبير من أطباء أسرته ومدرسته ، وكان منهم ولداه جبرائيل وبختيشوع ، وتلميذاه ماسويه الخوزي وابنه يوحنا .

عمل يوحنا في ادارة البيمارستان الذي أنشأه الرشيد في بغداد ، كما أشرف على المترجمين الذين كانوا يعملون في دار الحكمة . وكان يعقد مجلساً مساء كل يوم يحضره جمع من تلامذته ، فيفحص أمامهم بعض المرضى ،ويشخص الأمراض ، ويصف الأدوية . استمر عمله في خدمة الخلفاء العباسيين منذ عهد الرشيد حتى أيام المتوكل ، حيث توفي عام ٨٥٧ هـ .

قام يوحنا بوضع عدد كبير من المؤلفات الطبية والصيدلية ، اقتبس أكثرها من كتب اليونان ، وخاصة أبقراط وجالينوس ٠ لقد كان هنالك أسر وأفراد يعود اليهم الفضل أيضاً في جمع المخطوطات والسعي في ترجمتها ، نذكر منهم أسرة موسى بن شاكر ، وعلي بن يحيى المنجم ، ومحمد بن عبدالملك الزيات وغيرهم ٠٠٠

مما لا شك فيه أن حنين بن اسحق ، تلميذ يوحنا بن ماسويه ، كان أنبغ المترجمين ، فقد كان ضليعاً باللغة العربية الى جانب اتقانه اللغتين السريانية والاغريقية ٠ وقد لقبوه بحق شيخ المترجمين ، لأنه نقل أمهات كتب اليونان ، بينما اكتفى غيره بترجمة المؤلفات الموجزة لجالينوس ، وهو ما نطلق عليه اسم جوامع الاسكندرانيين ٠

لقد أغرم حنين بمؤلفات جالينوس فلم يترك كتاباً الا ترجمه ٠ يضاف الى ذلك أنه قام بتأليف عدة كتب طبية هامة منها كتاب العشر مقالات في العين وكتاب المسائل في الطب و ٠٠٠

استقرت العلوم في بغداد ، ونشأ جيل من العلماء المسلمين فهم هذه العلوم فهماً صحيحاً ، وكان على رأسهم أبو يعقوب الكندي الذي ألّف ما يزيد على واحد وعشرين كتاباً في الطب ٠ وكان للكندي اهتمام خاص بالصيدلة الى جانب اهتمامه بالطب وبالعلوم الطبيعية والهندسية بصورة خاصة ٠

تلك عجالة قصيرة عن مرحلة النقل والترجمة الأولى في عهد الأمويين والعباسيين ٠ ولكن اسمحوا لي أن أمر سريعاً الى حركة نقل العلوم الطبية في الأندلس لما لها من أهمية في اتمام هذا الموضوع :

لقد عُني الخلفاء والأمراء في الأندلس، وعلماؤهم وذوو الوجاهة والثروة منهم ، بتشجيع انتقال كتب العلم ، المترجمة والمؤلفة، في شرق العالم العربي الاسلامي الى خزائنهم ٠ كما سعوا لتفسير واصلاح ما تُرجم منها سابقاً ٠ فقد جاء في كتاب ابن جلجل (طبقات الأطباء والحكماء) أن كتاب ديسقوريدس في الأعشاب قد ترجم في بغداد أيام الخليفة جعفر المتوكل، من اليونانية الى العربية ، على يد الطبيب اسطفان بن باسيل ٠ وقد وردت نسخة الى الأندلس ، من الترجمة المذكورة ، وفيها نقص كبير ، وذلك في عهد الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر ، الذي عُرف بين ملوك الدنيا برغبته في العلوم ٠ فكانوا يهدونه الكتب ٠ وقد أهداه (أرمانيوس) ملك القسطنطينية هدايا من بينها كتاب (ديوسقوريدس) ، مصورة فيه بالألوان بعض النباتات الطبية ٠ ولما لم يكن في ذلكَ الحين في قرطبة من يقرأ الخط اليوناني فقد طلب عبدالرحمن من أرمانيوس أن يبعث اليه برجل يحسن اليونانية واللاتينية ، ليقوم بشرح وتفسير ما غمض من أسماء ومصطلحات وردت في هذا الكتاب ٠ فأرسل اليه راهباً اسمه نقولا ، فاشترك مع عدد من أطباء الأندلس ، بينهم محمد المعروف بالشجار ، وأبو عثمان الجزار ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبدالرحمن بن اسحق ، وأبو عبدالله الصقلي ٠٠ فصحح هؤلاء ببحوثهم بعض أسماء العقاقير الواردة في ترجمة الكتاب ، كما صححوا النطق بأسمائها ٠

لقد نشأ في الأندلس مدرسة لترجمة العلوم من اللاتينية الى العربية ، فأنجبت عدداً من العلماء ، أغنى بعضهم ببحوثه علوم الطبيعة والطب والفلاحة وعلم النبات • فجمع الطبيب أحمد بن محمد الغافقي (ت ــ ٥٦٠ هـ) نباتات اسبانيا وافريقيا ، وسمى كلا منها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية ، وكذلك فعل معاصره الشريف الادريسي ••

مرحلة التدوين والتأليف ، وهي ما نعبر عنهـا بالعصر الذهبي للعلوم عنـد العرب :

لقد بلغ الطب العربي التقليدي ذروته في القرن العاشر للميلاد ، أي الثالث للهجرة • ويكون بذلك قـد سبق الطب الغربي بنهضته بمئات السنين ، ففي البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة ظهرت بيمارستانات تضم مدارس للطب ، قصدها الراغبون في العلم من كل عرق ولون ودين •

ونحن سنكتفي بذكر ما له بالطب صلة وثيقة ، فقد تعمق المسلمون في دراسـة علـم وظائف الأعضـاء ، وحفظ الصحـة ، وعلم العقاقير والأدوية ، وما زال كثير من عقاقيرهم وأدويتهم يستعمل حتى الآن •

لقد عرف المسلمون التخدير بالاسفنجة، وأقدموا على اجراء عمليات جراحية منوعة ومبتكرة ، فكان النجـاح حليفهـم في حسـن نتائجها • وكانت الرسومات الطبيـة ، لبعض أعضـاء وأجهزة الانسان تزيّن مؤلفـاتهـم أحيـانـاً • واكتشف الكيميائيون من المسلمين مركبات كثيرة هامة أشهرها الكحول ، وأنواع الزاج، وآزوتات الفضة ، والسليماني الأكال، كما اكتشفوا عدة حوامض منها حامض الخل،وحامض الكبريت وروح الملح بالاضافـة الى عـدد كبير مـن العطور والأملاح والأصبغة •وعرفـوا استخراج السـكر والنشاء وأنواع الزيوت •

ان أهم ما يميز العصـر الذهبي للطب العربي هو انشـاء البيمارستانـات وتأليف الأقرباذنيات والموسوعات ، وتأسيس نظـام الحسبة، وسنكتفي بالكلام عن بعض ما ظهر من الموسوعات خلال هذا العصر •

أولاً ــ كتاب فردوس الحكمة لعلي بن سهل رابن الطبري :

وهو أول كتاب منظم على شكل موسوعة يضم علوم الطب ، ظهر باللغة العربية ، وقد استفاد مؤلفه من المراجع السريانية والاغريقية والهنديـة ، دون الرجوع على ما يبـدو الى ترجمات حنين • واشتمل عمله على أبواب في المبادىء العامة الكونية وفروع الطب • وأفرز قسماً خاصاً بالطب الهنـدي وبهذين العالمـين الكنـدي والطبري بدأ عهـد التاليف العربي المستقل •

في هـذه الفترة ، كان أهم ما في التراث الطبي من العالم قد نقل الى لغتنا العربية • نعـم •• في ذلك الوقت وعلى الأساس الذي أرساه الطبري مـن ناحية وحنين من الناحية الأخـرى بـدأ الطب الاسلامي في الازدهـار وسرعان ما ظهر محمد بن زكريا الرازي الذي يعتبره الباحثون شيخ الأطباء المسلمين وخاصة من الناحيتين التجريبية والسريرية في الطب •

ولد الرازي في الري ، وبدأ تعليمه في هـذه المدينة واتجـه الى الكيمياء في مستهل حيـاته ، ولم يتحـول الـى الطب الا في فترةمتاخرة • ثم جـاء الى بغـداد حيث كان على رأس المستشفى الرئيسي فيها، وأخيراً عاد الىالري حيث مات سنة (٣١٣/٩٢٥ م) • ومـن الصعب أن نتصور صورة تاريخية واضحة فيهذه المرحلة من حياته •• ولكننا نقول : لقد كانت له تجربة سريرية واسعة ، وقـد دربعدداً كبيراً من الطلاب وكتب كثيراً من المؤلفات وكان متفوقاً في شتى ميادين المعرفة منالفلسفةوعلم النفس الى الكيمياء والطب •

وكان ، اعجاب المؤرخ والعالم الفذّ البيروني بكتابات الرازي كبيراً •• حتى انه قضى سنوات عديدة فيجمع تلك المؤلفات، وتسجيلهافي فهرس خاص ، وقـد بلـغ مجموع هـذه المـؤلفـات /١٨٤/ مؤلفـاً تختـص بالطبوالموضوعات المتصلة به •• واهم هذه المؤلفات الموسوعة الضخمة (الحـاوي) وهـذا الكتابالموسوعة ذاع صيتـه في الشرق والغرب وهـو يقوم على ملاحظات الرازي اليومية في فحصمرضاه وعلاجهم •• ويعتبر ذخراً ثميناً مـن ناحيـة الملاحظـة والتجربـة أكثـر مـن الطب النظـري • ومـن كتب الرازي الأخرى « كتاب المنصوري » وكتاب « تقسيم العلل » وكتاب « الفاخر » ولعل أكثـر مؤلفاتـه ذيوعاً رسالته في « الجدري والحصبة » ، وقد ترجمتالى اللاتينية •

ان كتب الرازي تشمل كل فروع الطب• وهـذا الرجل الذي كان يعتبر نفسه نـدّاً لأفلاطون وأرسطو ، جمع بـين التراث الطبيالقديم ، وبين قدرته الشخصية على الملاحظة والاستنتاج للكشف عـن العديد من الأمراضولابتـداع وسائل حديثـة في ميـدان الطب التقليدي • فهو يمثل بحق قمة شامخة في الطبالاسلامي • وان أثره في العالم الاسلامي وفي الغرب في فروع الطب كافة ليفوق كل تقديروشهرته منذ ألف سنة مضت لهي خير دليل على الأثر الذي تركـه في تاريـخ الطب الاسلاميبخاصة وفي الطب العالمي بعامة •

وقد خلف الرازي **أبو نصر الفارابي ذلكالفيلسوف الكبـير** ، ولكن اهتمامه بالطب لم يبلغ درجة سلفه ، ومع ذلك فقد أبدى بعضالآراء في الطب •• وخاصة في طرقه ومبادئه ، بل روي أنـه زاول الطب حـين كان في حلبودمشق •

وهنالك **علي بن عباس المجوسي** ، ألّفكتاب « كامل الصناعة الطبية » ، وكان يقول: ان العلم بصناعة الطب أفضل العلوم وأعظمهاقدراً وأجلّها خطراً ، وأكثرها منفعة لحاجـة جميع الناس اليها • وكان عليّ هـذا مديراً لمارستان عضد الدولة الشهير في بغداد ، وقد دل كتابه ذلك علىمعرفة واسعة ليست مكتسبةمن قراءة الكتب وحسب ، بل هي نتيجة تجربة شخصية واسعة ••

ثـم جـاء ابن سينـا الشيخ الرئيس : وهو من أذكياء العالم ، وكان يفضل الأطباء بأنه فيلسوف ، ويفضل الفلاسفة بأنه طبيبممتـاز •• وقـد أنزله دانتي في منزلة بـين أبقراط وجالينوس ، حفظ ابن سينا القرآن أولاً ، والأدب العربي ثانياً ، وتعلم الفلسفة اليونانية والعلوم الطبيعية • ثم تابع المطالعةحـتى برع في الرياضيـات ثم بالطب ، وهـو ما يزال في سن السادسةعشرة من عمره • تقولالمستشرقة (مدام جواشون) : انه حينما بلغ

ابن سينا السادسة عشرة كان طبيباً معروفاً وقد ملأ اسمه الآفاق مما جعل سلطان بخارى يستدعيه لمعالجته • وفعلاً فقد شفي السلطان على يديه •• فأكرمه بأن وضع مكتبته الضخمة بين يديه ، حيث أخذ يعب العلم من هذه المكتبة •

ـ بلغ عدد مؤلفاته أكثر من /١٦٠/ كتاباً ، فيها سبعة عشر كتاباً في موضوع الطب ومن أهمها **كتاب القانون** الذي ترجم الى اللاتينية ، وأصبح مرجعاً هاماً للدراسات الطبية في أوروبا وقد كان يدرّس هذا الكتاب في جامعتي فيينا وفرانكفورت طوال القرن السادس عشر • كما بقي يدرّس في جامعتي مونبليه ولوفان حتى منتصف القرن السابع عشر • وقد ترجم الكتاب الى لغات مختلفة فتداوله الاسرائيليون المشتغلون بالطب بين أرجاء العالم بأسره • وقد تعددت طبعاته حتى قاربت الأربعين طبعة • في الوقت الذي كان فيه الطب خاضعاً لسلطان السحر والشعوذة والتدجيل (في أوروبا) وكان ابن سينا يفصل به طبّه وفلسفته فصلاً علمياً دقيقاً في موضوعي الفحص والمعالجة اذ يحاول أن يصل مع مرضاه الى علاج نفسي ، فاذا لم يتمكن من ذلك حاول أن يستعين بالأدوية • ولقد قضى ابن سينا جلّ حياته في البحث العلمي • ووفّق الى ادخال التصحيحات على ما جاء في طب الأقدمين حول عوارض الفالج ، وامراض الكبد ، والصدر وعلاقة بعض الأمراض بغيرها • كما أنه اكتشف مرض التهاب السحايا ، وقد ذكر الدودة الشمسية (الأنكلوستوما) في مؤلفاته ووضع حدوداً لآلام الأعصاب بعد ملاحظتها ، واجراء تجارب عليها • ولقد توصل ابن سينا في ملاحظاته الى أن الحصبة أكثر ما تنتشر عدواها في الربيع والخريف • كما كان ابن سينا شاعراً ، وله قصيدة من أروع القصائد في وصف النفس :

هبطت اليك من المحل الأرفع	**ورقاء ذات تعزز وتمنع**
محجوبة عن كل مقلة عارف	**وهي التي سفرت ولم تتبرقع**

كان ابن سينا متعاظماً ، معتدّاً بنفسه ، طموحاً متعالياً ، لذلك فكانت حياته سلسلة من الأحداث والاضطرابات ، كان كتابه القانون موسوعة طبية جامعة ، لكل العلوم الطبية المدونة • وقد حوى هذا الكتاب على ما يقارب المليون كلمة ، ومما يقول في الأرجوزة :

وكل طعام يعجز السن مضغه	**فلا تبتغيه فهو شر المطاعم**
ولا تتعرض للدواء وشربه	**مدى الدهر الا في احتمال العظائم**
ولا تحبس الفضلات عند اقتضائها	**ولو كنت بين المرهفات الصوارم**
وكن مستحماً كل يومين مرّة	**وحافظ على هذي الخلال وداوم**

ذلك ابن سينا الذي سجل في الخالدين لقوله :

(لأجعلن الزمن أحب الى أهله من النسيم) • ونحن لو فكرنا ملياً في هذا القول الرائع لعرفنا مبلغ الدرجة الانسانية الرفيعة التي ارتقى اليها الطب الاسلامي • وأين هذه الكلمة من أولئك المشرعين الذين نادوا بقتل (المرضى المزمنين) باسم الانسانية • أين هذا

القول من أولئك الذين نادوا في برلمانات الغرب بأن تتخلص البشرية منهم !! باسم القتل الرحيم ٠

ولكنه النور الذي ملأ الأرجاء ، ولكنه الايمان الذي عمر القلوب ٠٠

وبعدئذ هل ننسى الطب في الأندلس ٠ هل ننسى العلوم في فردوسنا المفقود ٠٠

كان أول من **أنجبتهم قرطبة الزهراوي** ٠٠ الذي يعتبر أعظم جراح في تاريخ الطب الاسلامي وقد كتب « كتاب التصريف » وهوموسوعة علمية ، كانت دليلاً للجراحين في أوربا حتى عصر النهضة ٠ اذ قدم وصفاً دقيقاً فيها عن أدوات الجراحة في الطب ، وقد ضم الكتاب ثلاثة أجزاء أولها في الكي ، كما يشير به الطب النبوي ، ويقترحه الزهراوي لعلاج الصرع ، والثاني في العمليات التي تجري بالمشرط ، وعمليات العيون والفم ، والثالث : في أنواع العظام وخلعها ثم في التوليد ٠

وفي الأندلس أيضاً نبغ الطبيب العربي ابن زهر ٠

ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان : ان ابن زهر كان من أهل بيت كلهم علماء ورؤساء ووزراء ٠ نالوا المراتب العليا عند الملوك ، ونفذت أوامرهم ٠٠ كان يحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغة العرب ـ وقد أوصى أنه اذا مات تكتب على قبره هذه الأبيات وفيها اشارة الى طبّه ومعالجته للناس :

تأمل بحقك يا واقفاً ولاحظ مكاناً دفعنا اليه
تراب الضريح على وجنتي كأني لم أمش يوما عليه
اداوي الأنام حذار المنون وها أنا قد صرت رهناً لديه

أما المؤرخ المعاصر فؤاد أفرام البستاني فقد ذكره في دائرة معارفه فقال : ان شهرة ابن زهر تقوم اضافة الى طبّه في شعره ٠ ولاسيما في موشحاته المبتكرة التي كان فيها من المقدمين في هذا الفن الجديد ٠ وقد جمع الى ثقافته الطبية ثقافة لغوية أدبية ٠

ويقول الدكتور الأستاذ أحمد شوكت الشطي في كتابه « اللب في الاسلام والطب » : بنو زهر اسم يطلق على أفراد من أسرة من علماء الطب في الأندلس منهم : أبو مروان ابن زهر طبيب وفقيه ، وأبو العلاء بن زهر بن مروان طبيب اشتهر بحسن التشخيص ، ومنهم أبو مروان بن أبي العلاء ، ولد في اشبيلية ، اعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، وله اختراعات في علم الجراحة ٠٠ ومنهم أبو بكر بن أبي العلاء ، برع في الطب وله كتاب في « طب العين » ٠

لقد كانت « قرطبة » منارة العلم والعرفان ٠٠ ذاع صيتها في الآفاق ، وقد بلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونافار وبرشلونة كانوا يقصدون اليها ، كلما احتاجوا الى طبيب أو جراح أو مهندس ، وذلك ما حدث مع/طوطا/ ملكة نافار فقد أوفدت بولدها سانكا البدين لتعالجه من السمنة على أيدي أطباء قرطبة ٠٠ ثم هل ننسى جامعة قرطبة التي بلغ عدد المنتسبين اليها بضعة آلاف من الطلاب ٠ وأصبحت شهادتها سبيلاً الى الوصول الى

أسمى المراتب ، وأرفع المناصب • وكانت النساء شقائق الرجال في اقتحام الحقول العلمية، فاشتهر منهن في الأدب والطب عدد كبير • ثم هناك جامعة غرناطة التي أسسها يوسف أبو الحجاج (سابع سلاطين بني نصر ١٢٣٣ ـ ١٢٥٤) وقد وضعت في مداخل هذه الجامعة تماثيل أسود من الحجر كأنما تحرسها ، وكان لهذه الجامعة ، جامعة غرناطة ، فروع ومعاهد تدرس فيها علوم الطب والكيمياء والفلك والفقه والدين ، وهناك قول مألوف كان ينقش غالباً فوق أبواب هذه المعاهد وهو أن العالم يقوم على أربعة أمور :

ـ علم الحكماء ، وعدل العظماء ، ودعاء الصلحاء ، وشجاعة الشجعان •

أما قرطبة فقد تفردت بأنها كانت في مقدمة أسواق الكتب في الأندلس• وكان اقتناء الكتب آنذاك سبيل المنافسة بين الناس ، ولابأس أن نورد هذه الحادثة للاستئناس : قال الحضرمي : أقمت بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى أن وقع وهو بخط جيد ، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع اليّ المنادي بالزيادة علي ، الى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغ الى ما لا يساوي •••

قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له : أعزّ الله سيدنا ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، فقال لي : لا أدري ما فيه ولكن أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير ••(!!)

ذلك غيض من فيض •• أو قطرة من بحر ولو نقلنا اليكم ما قاله الأوربيون في تراثنا الطبي العربي الاسلامي لأطلنا ••ولكننا نريد أن نترك ذلك للدارسين والباحثين ••

ترى ماذا حلّ بتلك المؤلفات جميعاً ؟؟ نعم لم يصلنا منها الا القليل القليل فلقد ارتكب أعداء الانسانية جرائمهم في كل مكان•• وهل هناك أفظع مما ارتكبه التتار في بغداد ، حيث أحرقوا ما في بغداد من كتب وألقوا في نهر دجلة ما ألقوه •• وفي غرناطة أو لم يصادر « كسيمنس » كتبنا الخالدة ويرتكب بحقها وحق العلم والانسانية جريمة كبرى تحاكي جريمة التتار في بغداد • فقد جمعها في أكوام في ساحات غرناطة وأشعل فيها النار ••

لقد أفل نجم العرب حينئذ فبهت نور العلم ثم زال وعمّ الدنيا الظلام •

واليوم ماذا يمكن أن نقول هل نعرف نحن العرب مكانة علمائنا•• هل نعرف قدرهم ومنزلتهم هل نهتم بهم مثلما يهتم بهم غيرنا على الأقل • ماذا فعلنا من أجلهم ، ان معاهدنا وجامعاتنا مقصرة في هذا المجال • ليس يكفي أن نذكرهم كلما مرت مناسبة ، أو انقضى من الأعوام ألف • ليس يكفي أن نكتب عنهم :ونقول انظروا ماذا فعل أجدادنا وتأملوا حسن صنيعهم • فالبشرية كلها تعترف بجميلهم وتحيي مجدهم •

وعلماء المشرق والمغرب يقدرون ويحترمون، في الغابر والحاضر، يقتدون ويترسمون خطواتهم في كل سبيل ..

اذاً نحن بحاجة الى اهتمام دائم بتراثنا، نحن بحاجة الى النظر فيه باستمرار ونشره وإحيائه. وأن تتسلمه أيدٍ أمينة مخلصة، أيدٍ مؤمنة صادقة تخاف الله وتؤمن به وتعمل في سبيله. أيدٍ نظيفة لم تلوثها نزعات الهوى. ولا زيغ القلوب والضمائر، أيدٍ تعمل بصدق، وتكتب بصدق، وتبحث بصدق، وتسعى دائماً الى الصدق.

آخر ما قرأته لكم هذه النادرة التي تدل على مجدنا العلمي المبكر .. كان ذلك في نهاية القرن الثاني الهجري. فقد انصرف عبدالله بن غانم يوماً من الجامع الأعظم بالقيروان، بعد صلاة الجمعة. فدخل عليه بعض أصحابه، فسأله ابن غانم ؟ هل حضرت الجامع ؟

قال : نعم.

قال ابن غانم : كيف رأيت ؟

قال : رأيت أصلحك الله، سبعين قلنسوة تصلح للقضاء، وثلاثمائة قلنسوة عالم ... فتوجع ابن غانم وقال متأسفاً :

مات الناس يا أبا الحسن !؟

اسأل الباحثين اليوم .. هل زاروا جامعاتنا ؟ وكيف رأوا الناس هناك ؟.

نعم .. ان الجواب سيكون مؤسفاً لو عرف آباؤنا الأولون في رموسهم هذا لأنكروا ذلك ... فالى الله نضرع أن يفتح لنا في تاريخنا المعاصر صفحة جديدة مطرزة بالمجد والكرامة والعزة لعل أجيالنا تكمل رسالة العلم والحياة والحضارة في ربوع العالم.

وجدير بمن كان ماضيه حرياً بالاعجاب والتقدير أن يصل الحاضر بالماضي ليسير في الركب لأن ركب الحضارة يسير حثيثاً مستنداً الى أصالة نبيلة والى ماضٍ مجيد يزيده علماً وعملاً وطموحاً وأملا ...

★ ★ ★